

أَنَّكَ سَمِعْتَ بِالْإِسْكَندَرِ الْمَقْدُونِيِّ. وَلَقَدْ جَاءَ بِلَادَنَا بَعْدَمَا دَانَتْ لَهُ مَمَالِكُ الْحِثِّيِّينَ وَالْفِينِيقِيِّينَ وَالْأَشُورِيِّينَ وَالْمِصْرِيِّينَ، وَمِنْهَا انْتَقَلَ إِلَى بِلَادِ ((الهِندِ)) وَ((الصِّينِ)). «سَمِعْتَ بِقُوَّتِهِ وَبِأَسَاسِهِ بِلَادَ الْعَالَمِ، إِلَّا مَلِكًا شَابًا مِنْ مُلُوكِ ((الهِندِ)) يُدْعَى فُورَ. فَصَمَّمْتُ عَلَى مُحَارَبَةِ الْفَاتِحِ الْغَازِي. وَاشْتَرَمْتُ بِمَنْهَا أَقْوَى الْأَسْلِحَةِ وَأَفْتَكَهَا. جَمَعَ مِنْ بِلَادِ ((الهِندِ)) وَ((السِّندِ)) الْفِيلَةَ الْمُحَارِبَةَ وَالسِّبَاعَ الضَّارِبَةَ. وَبَعْدَمَا تَمَّ لَهُ تَحْصِينُ الْبِلَادِ بِالْأَسْوَارِ الْعَالِيَةِ الْمُنِيْعَةِ، «وَصَلَّتْ أَخْبَارُ فُورَ وَاسْتِعْدَادَاتِهِ إِلَى الْإِسْكَندَرِ، لِذَا أُرْسِلَ إِلَى بِلَادِهِ، وَإِلَى الْبِلَادِ الْخَاضِعَةِ لَهُ، يَطْلُبُ أَعْظَمَ الْقَوَادِ، وَأَكْبَرَ الْمُهَنْدِسِينَ وَطَلَّبَ إِلَى أَمْهِرِ الصَّنَاعِ دِيَهُ أَنْ يَصْنَعُوا لَهُ خَيْلًا مِنَ النُّحَاسِ جَوْفَاءً، إِذَا دُفِعَتْ مَرَّتَ مُسْرِعَةً كَالسَّهَامِ. وَبَعْدَ مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ صَنَعَ الْعُمَالُ مِنْ هَذِهِ الْخَيُْولِ الْعَجِيبَةِ عَدَدًا يُوَازِي عَدَدَ الْفِيلَةِ فِي الْجَيْشِ الْهِنْدِيِّ. أَنْ يُعِينُوا لَهُ الْوَقْتَ الْمُنَاسِبَ لِلْهُجُومِ. وَقَبْلَ الْيَوْمِ الْمُحَدَّدِ أَوْفَدَ رُسُلَهُ إِلَى فُورَ يَدْعُوهُ إِلَى طَاعَتِهِ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، فَكَانَ جَوَابُ فُورَ: الْحَرْبُ! الْحَرْبُ! وَلَا شَيْءَ سِوَاهَا! وَمَا إِنَّ شَاهِدَ الْإِسْكَندَرِ هُجُومَ الْفِيلَةِ الْهِنْدِيَّةِ الْمُقَاتِلَةِ حَتَّى أَمَرَ قُوَادَهُ فَدَفَعُوا الْخَيُْولَ النُّحَاسِيَّةَ الْمُتَلَهَّبَةَ، فَطَارَتْ كَالسَّهَامِ تَلْتَحِمُ بِالْفِيلَةِ الْمُدْرِيَّةِ وَالسِّبَاعِ الضَّارِبَةِ. (وَتَعَالَتْ أَصْوَاتُ الْفِيلَةِ وَقَدْ احْتَرَقَتْ خِرَاطِيمُهَا بِالْخَيُْولِ النُّحَاسِيَّةِ الْمُحْمَاةِ بِالنَّارِ. وَقَدْ فُورَ كُلَّ سَيْطَرَةٍ عَلَيْهَا لِهَوْلِ الْمُصِيبَةِ وَقُوَّةِ الْمُفَاجَأَةِ. - يَا مَلِكُ ((الهِندِ))! انْظُرْ إِلَى فَيْلَتِكَ الْهَارِبَةِ وَجَيْوشِكَ الْمُنْهَزِمَةِ. وَابْزُرْ إِلَى مُقَاتَلَتِي مُنْفَرِدًا. تَقَدَّمَ فُورَ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِهِ الْأَسْوَدِ، وَدَامَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ سَاعَاتٍ طَوَالًا، وَخَافَ الْإِسْكَندَرُ أَنْ تَدُومَ الْحَالَةُ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ، أَوْ أَنْ تَنْقَلِبَ النَّتِيجَةُ إِلَى مَا لَا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ، فَعَمَدَ إِلَى الْحِيلَةِ يَنْتَصِرُ بِهَا عَلَى شَجَاعَةِ فُورَ. وَالتَفَتَ فُورَ إِلَى الْوَرَاءِ مُسْتَطْلِعًا، ثُمَّ ضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ ضَرْبَةً أَوْدَتْ بِحَيَاتِهِ. قَتَا أَى الْهُودُ مَا خَلَّ بِقَائِدِهِمْ هَجَمُوا عَلَى الْأُسْكُتَرِ وَلَكِنْ جَيْشُ الْإِسْكَندَرِ كَانَ لَهُمْ بِالْمُرْصَادِ، وَلَمَّا تَمَّ النَّصْرُ لِلْإِسْكَندَرِ سَارَ إِلَى بِلَانِ فُورَ فَاحْتَلَّهَا، سَارَ إِلَى بِلَادِ ((الصِّينِ)) فَاتَحَهَا. وَاطْمَأَنَّ الْهُنُودُ إِلَى نِعْمَائِهِ فِي الْمَعَارِكِ وَالْفُتُوحِ خَارِجَ أَرْضِيهِمْ، إِلَى الْقِتَالِ فِي سَيْلِ الْحُرِّيَّةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ؛ وَوَلَّوْا حُكْمَ الْبِلَادِ شَابًا مُقَدَّمًا مِنْ سُلَالَةِ مُلُوكِهِمْ يُدْعَى دَبْشَلِيمَ، وَلَمَّا وَصَلَ بُزْرَجْمَهُرُ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ مِنْ رِوَايَتِهِ تَوَقَّفَ قَلِيلًا لِيَسْتَجْمَعَ أَنْفَاسَهُ. وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ ((جَوْهَرَةِ الْجَوَاهِرِ)). التَفَتَ كَسْرَى إِلَى وَلَدِهِ وَقَالَ لَهُ مُبْتَسِمًا: وَدَعْنَا جَمِيعًا نُصِيبَ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. وَبَعْدَمَا أَكَلُوا وَشَرَبُوا تَابَعَ بُزْرَجْمَهُرُ سَرْدَهُ، - تَسَلَّمَ دَبْشَلِيمَ إِدَارَةَ الْبِلَادِ، دَائِمَ الْخَوْفِ مِنْ عَوْدَتِهِ إِلَى الْبِلَادِ بِجَيْوشِهِ. وَبَعْدَ مُدَّةٍ تَرَامَتْ إِلَيْهِ نَبَأُ مَوْتِ الْإِسْكَندَرِ وَانْقِسَامِ مَمْلَكَتِهِ الْعَظِيمَةِ بَيْنَ قَوَادِهِ، ثُمَّ أَنْبَأَ الْقِتَالُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْقَوَادِ؛ وَوَصَلَتْ الْأَخْبَارُ إِلَى بَيْدَبَا، فَيَلْسُوفُ الْبِلَادِ وَرَجُلُهَا الْحَكِيمِ. ثُمَّ بَدَأَتْ وَفُودُ الْمَظْلُومِينَ، وَوُفُودُ حُكَمَاءِ الْبِلَادِ وَأَعْيَانِهَا، طَالِبَةً أَنْ يُعِينَهَا بِحُكْمَتِهِ عَلَى دَفْعِ الظُّلْمِ عَنِ الْبِلَادِ وَالرَّعِيَّةِ. وَفِي إِحْدَى الْأُمُوسِيَّاتِ جَمَعَ بَيْدَبَا تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ: بِلَادُنَا فِي خَطَرٍ شَدِيدٍ: فَالْعُدُوُّ عَلَى الْأَبْوَابِ، فَكَيْفَ لِلشَّعْبِ أَنْ يُحَارِبَ فِي سَبِيلِ بِلَادٍ هُوَ فِيهَا حَقِيرٌ ذَلِيلٌ؟ - مَا الْعَمَلُ بَا مُعَلِّمٌ؟ أَتُرَى عَلَيْنَا بِحُكْمَتِكَ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ. - إِنَّ وَاجِبَ الْحُكَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ هُوَ أَنْ يُعِينُوا النَّاسَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ. وَأَنْ نَعُودَ بِهِ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ. - وَكَيْفَ هَذَا أَيُّهَا الْحَكِيمُ؟ أَنْتَ أَدْرَى النَّاسَ بِالْمَلِكِ، - لَقَدْ سَمِعْتُ الْكَبِيرَ عَنْ أَحْوَالِ الْمَلِكِ وَأَخْلَاقِهِ. وَلَكِنْ صُعُرِيَّةُ الْمَهَمِّ لَا تَحُولُ دُونَ قِيَامِي إِلَى وَاجِبِي. وَسَتَكُونُونَ أَنْتُمْ بَانْتَظَارِي فِي الْمَدِينَةِ. فَإِنْ خَرَجْتُ مِنْ قَصْرِهِ سَالِمًا اجْتَمَعْنَا لِاتِّخَاذِ الْخُطُوبِ الْمُنَاسِبَةِ، وَالْأَفْأَمَا عَلَيْنَا إِلَّا التَّحْقِي رَثْمًا تَنْجَلِي الْأُمُورَ «وَعَبْنًا حَاوَلُ تَلَامِيذُ بَيْدَبَا إِقْنَاعَهُ بِالتَّخَلِّي عَنْ خَطِيئَتِهِ، فَقَدْ كَانَتْ مَصْلَحَةُ الْبِلَادِ، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي وَصَلَ بَيْدَبَا وَصَحْبُهُ إِلَى الْمَدِينَةِ. ذَهَبَ بَيْدَبَا وَحْدَهُ إِلَى الْقَصْرِ، - قُلْ لِلْمَلِكِ إِنْ يَبْدَبَا فِي الْبَابِ، (دَخَلَ الْحَاجِبُ عَلَى الْمَلِكِ فَأَخْبَرَهُ بِأَمْرِ بَيْدَبَا فَأَذِنَ عَنْ سِرِّ زِيَارَةِ النَّاسِكِ لَهُ: «وَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ الْحَاجِبُ يُعْلِنُ عَنْ دُخُولِ النَّاسِكِ، نَظَرَ فَإِذَا بِهِ إِزَاءَ رَجُلٍ قَدْ لَبَسَ مُسُوحَ الْحُكَمَاءِ وَالنُّسَاكِ، تَلَوَّحَ عَلَى قَسَمَاتِهِ أُمَارَاتُ الصَّرَاحَةِ وَالذِّكَاةِ وَالطَّيْبَةِ. وَزَادَ اسْتِعْرَابُ الْمَلِكِ حِينَ رَأَى الْفِيلُسُوفَ يَقِفُ سَاكِئًا لَا يَفُوهُ بِكَلِمَةٍ. (وَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا كَلَامَ الْمَلِكِ اطمأنَّ قَلْبُهُ، وَزَادَنِي جُرْأَةً عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ. اَعْلَمَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ أَنَّ الْبِلَادَ قَدْ ضَجَّتْ بِظُلْمِكُمْ وَقَدْ خَرَجْتُ مِنْ عَزْلَتِي فَدَخَلْتُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّنِي أَنْوَصِلَ إِلَى عَقْلِكُمْ وَقَلْبِكُمْ، وَلَعَلَّكُمْ تُصَلِّحُونَ مِنْ أَمْرِكُمْ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ. - مَاذَا تَقُولُ أَيُّهَا الْوَقِحُ؟ أَذْنْتُ لَكَ بِالْكَلَامِ، فَإِذَا بِكَ تَلَذَّعْنِي بِجَارِحِ كَلَامِكَ. - أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ بِجَبَرَتِهِ! لَقَدْ قُمْتُ بِوَاجِبِ النُّصْحِ وَالْهَدَايَةِ، لَعَلَّنِي أَنْقِذَ بِلَادِي وَعَرَشَكَ مِنَ الْهَلَاكِ. وَضَبَابُ الْجَهْلِ يُعْمِي عَيْنَيْكَ. فَإِنَّ مَنْ قَامَ بِوَاجِبِهِ لَا يَهَابُ الْمَوْتَ. (وَمَا إِنْ خَرَجَ الْحُرَّاسُ بِبَيْدَبَا حَتَّى أُرْسَلَ دَبْشَلِيمَ بِأَمْرِهِمْ يَحْمُ إِلَى السَّحْنِ مِنْ عِبْرِ أَنْ يُصَلَّبَ. فَقَامَ إِلَى شَرْفَةٍ غُرْفَتِهِ يَرْقُبُ الْكُونَ مِنْ حَوْلِهِ. فَغَرِقَ فِي سِرِّ تَكْوِينِهَا، جَاهِلٌ إِزَاءَ خُلُودِهَا؛ وَيَسْرَحُ لَهُ أُمُورَهَا؛ وَكَمِيلُ التَّمَاعِ الْبَرَقِ بَيْنَ الْغُيُومِ، هَكَذَا التَّمَعْتُ صُورَةَ بَيْدَبَا فِي خَاطِرِ دَبْشَلِيمَ! فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ، وَالْكَوْنُ حَقِيقَةٌ وَجَمَالٌ، أَدْرَكَ الْمَلِكُ عَظَمَةَ الْعِلْمِ وَقَدَّرَ أَصْحَابِهِ، لَقَدْ أَرَادَ لَفِيلُسُوفُ الْبِلَادِ السَّعَادَةَ، نَغَضَ الْمَلِكُ لِهَذِهِ الْفِكْرَ أَلْمًا وَتَدَمًّا. وَفِي الْحَالِ أَمَرَ بِإِحْضَارِ بَيْدَبَا، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ - أَيُّهَا الْفِيلُسُوفُ الصَّالِحُ! لَقَدْ أَسَاءْتَ إِلَيْكَ وَظَلَمْتُكَ، كَمَا أَسَاءْتَ إِلَى بِلَادِي وَظَلَمْتُ شَعْبِي. فَهَلَا تَقْبَلُ وَتَغْفِرُ؟ وَيُسْعِدُ أَيَّامِي. «وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي قَلَّدَ الْمَلِكُ بَيْدَبَا الْوِزَارَةَ، وَتَحَسَّنَتِ التِّجَارَةُ وَالصَّنَاعَةُ وَالزَّرَاعَةُ. وَاطْمَأَنَّ الْمُلُوكُ الْمُجَاوِرُونَ إِلَى سِيَاسَةِ دَبْشَلِيمَ الْجَدِيدَةِ، (وَأَرَادَ دَبْشَلِيمَ أَنْ يُعَوِّضَ مَا فَاتَهُ مِنْ مَعْرِفَةٍ، فَانْصَرَفَ إِلَى خَزَائِنِ أَجْدَادِهِ

يُخْرِجُ مِنْهَا مَا حَوَتْ مِنْ جَوَاهِرِ الْعِلْمِ؛ وَتَصَائِحُ الصَّالِحِينَ. «اسْتَدْعَى بَيْدَبَا وَقَالَ لَهُ: فَضْلاً عَنِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، وَلَيْكُنِ اللَّهُ فِي عَوْنِكَ. وَجَمَعَ مَا حَوَتْ خَزَائِنُ ((الهند)) مِنْ أَدَبٍ وَحِكْمَةٍ. ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْعَمَلِ فِي دَارَةٍ جَمِيلَةٍ أُعِدَّتْ لَهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ (قَسَمَ بَيْدَبَا الْكِتَابَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَاباً، بَعِيدَةَ التَّوْجِيهِ. وَلَمَّا حَلَّ الْمَوْعِدُ الْمُعَيَّنُ حَمَلَ بَيْدَبَا كِتَابَهُ إِلَى الْمَلِكِ، فَأَرْسَلَ دَبْشَلِيمُ وَفُودَهُ تَدْعُو عُلَمَاءَ الْبِلَادِ وَرِجَالَهَا لِيَحْضُرُوا قِرَاءَةَ الْكِتَابِ. وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِهِ كِبَارُ مَمْلَكَتِهِ، وَعَنْ يَسَارِهِ عُلَمَاؤُهَا. أَمَّا الْمَلِكُ فَقَدْ أَوْمَأَ إِلَيْهِ مُبْتَسِماً وَأَجْلَسَهُ عَنْ يَمِينِهِ. وَأَخَذَتْهُمْ فِيهَا نَشْوَةٌ مِنَ اللَّذَّةِ وَالسَّعَادَةِ لَا تَوْصَفُ. وَلَا بِأَعَمَقَ مِنْهُ لَذَّةٌ. فَإِنَّ كِتَابَكَ لَا يُقَدَّرُ بِثَمَنِ! وَأَنْ يَأْمُرَ بِالْحِرْصِ عَلَيْهِ – إِنَّ طَلَبَكَ وَاجِبٌ مُقَدَّسٌ. وَهُوَ اسْمُ الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ بَيْدَبَا، أَعْظَمُ مَكْتَبَاتِ مُلُوكِ ((الهند)) قَاطِبَةً. جَوْهَرَةُ الْجَوَاهِرِ، مَحْفُوظَةٌ فِي خَزَائِنِ ((بَيْتِ الْحِكْمَةِ))، وَلَمَّا أَنْهَى بُزْرَجَمَهُرُ كَلَامَهُ نَظَرَ كِسْرَى إِلَى وَلِيِّ عَهْدِهِ وَرَأْسِ كُلِّ عِلْمٍ، وَأَسَاسِ كُلِّ يَتَقِنُ الْفَارْسِيَّةَ وَالْهِنْدِيَّةَ. بَعْدَ طَوِيلِ بَحْثٍ وَتَدْقِيقٍ، إِنَّ حَيَاتِي وَعِلْمِي فِي سَبِيلِ مَلِكِي وَبِلَادِي. – بَلَّغْنِي أَنَّ كِتَاباً هِنْدِيّاً، مُحْتَوِيّاً إِلَيْنَا. – سَمِعَاً وَطَاعَةً يَا مَوْلَايَ!